

في الأخلاق وعلم النفس

- جامعة مكارم الأخلاق
- العفو والقصاص
- أسلوب تحمل المسؤولية
- صحة الأشرار والأقوال المسمومة .
- في الإرشاد
- في طريقة تدريس المحفوظات
- مقابلة كبار الشخصيات

تقديم

نحن نعاني في دراساتنا الخلقية والتربوية من المشكلات أموراً
نحب الحديث فيها .. منها :

- ١ - كيف نعامل المسيئين اليانا ؟
- ٢ - مجال العفو
- ٣ - وسائل الارشاد وأوقاته
- ٤ - نتائج الهواجس النفسية وما يقذف في « اللاشعور »
- ٥ - كيف نحفظ ما قد نحتاج الى حفظه ليلازمنا في سلوكنا ؟
- ٦ - مقابلة كبار الشخصيات وذوى الشأن .
وقد عالجت آيات القرآن التي زعم البعض نسخها هذه
النواحي فيما يلي من الحديث .

جامعة مكارم الاخلاق

قال الله تعالى : « **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** » (١)
وقال أبو عبد الله بن حزم : هذه الآية من عجيب المنسوخ ، فأولها
وآخرها منسوخان ، وأوسطها هو المحكم ، وهو قوله « **وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ** »
فقوله : « **خُذِ الْعَفْوَ** » يعنى الفضل من أموالهم نسخته آية الزكاة . .
وأما قوله « **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ** » فهو منسوخ بآية السيف .

وهذا القول باطل : لأن المراد بالعفو ليس هو فضل الأموال في هذا
المقام ، وإنما هو سقطات السنة الناس وعباراتهم التي قد تكون غير
مهذبة .

وقد أخرج البخارى عن عبد الله بن الزبير قال : « ما نزلت « **خُذِ
الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ** » . الا في أخلاق الناس » ، وفي رواية قال : « أمر الله
نبيه صلى الله عليه وسلم ان يأخذ العفو من أقوال الناس » . وكذا في
جامع الأصول وفي الجمع بين الصحيحين للحميدى .

وهذا المعنى لا تتسخه الزكاة : فالاحسان الى الناس بالعفو عن
سقطاتهم لا يتعارض مع الاحسان الى الفقراء بمنحهم حقوقهم في نصاب
الزكاة .

وأما قوله سبحانه « **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** » وهم السفهاء ، فليس
معناه ترك الكفار بدون حرب ، وإنما المراد أن يكون في طبع الرسول
تسامح وصبر على الجاهلين حتى يزجرهم الحق ويخجلهم التسامح مع
القوة . فاذا لم يكن في هذا غناء أغنى السيف والمدفع .

فالآية لم ينسخ منها شيء ، وهى توصى بثلاث خصال :

١ - الا نتزمت وندقق في الحساب على فلتات السنة الضوم ، ولننتلمس

المعاذير لمن لاحظ له من تهنيق العبارة ، وكان تاموسه اللغوى
مجدب من الالفاظ الرقيقة الرهيقة .

٢ - أن نوصى بالمعروف ونحض عليه ، ونكون منائر للإرشاد والتوجيه

٣ - أن نتجنب الجاهلين حتى لا نصينا عدوى اخلاقهم ان صاحبناهم ،
وأن نعوذ عن سفاهتهم ولا نقابلها بالمثل فنكون مثلهم ، ونعتاد لحنهم
المرذول .

وهذه لعبرى جامعة مكارم الاخلاق ، ودليل النضج الاجتماعى ،
وما يقول بنسخها بعد هذا الايضاح الا من نسخ عقل نفسه .

العفو والقصاص

قال تعالى : « والذين اذا اصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء
سيئة سيئة مثلها ؟ فمن عفا واصلح فاجره على الله ، انه لا يحب الظالمين .
ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين
يظلمون الناس ويبيغون فى الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم . ولمن
صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » (١) .

مناقشة دعوى النسخ :

نسق رائع فى الآيات : ولكن ابا عبد الله بن حزم يقول : ان آخر
الآيات « ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » نسخ اولها :
وهو قول غير سليم : لان الآية الاولى انما تبين حكم الدفاع عن النفس
وصد البغى ، وانه يجب ان تدفع السيئة بمثله لا بأقسى منها ، وانه
لا تثريب على من ينتصر لحقه ، انما التثريب على الظالم الذى دتمنى الى
قتاله ودفع صياله .. وهذه المعانى ثابتة شرعا وعرفا ..

اما قوله سبحانه « ولمن صبر وغفر » فقد جاء لبيان اى الامرين
أفضل . العفو أم القصاص ، فقررت فضل العفو ، وانه ادل على قوة

الشخصية ، غاية لا شك أن الذي يملك نفسه عند الغضب أكبر قلبا وأعظم نفسا ممن لا يطيق كبح جماح نفسه في ثورة الغضب ..
 كما أن الآيات وردت في سياق بيان حق الإنسان في كرامته الشخصية ، ومظهرها أمران : قصاص بالمثل ، أو عفو عند المقدرة .
 وعليه فلا تعارض ، لأن الأمرين مظهر لشيء واحد هو كرامة الإنسان ، وبيان حقه فيها ..

أسلوب تحمل المسؤولية

قال الله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » (١) .

مناقشة دعوى النسخ :

قال ابن حزم : ان هذه الآية منسوخة بآية السيف :
 وهذا القول باطل ، لأن هذه الآية لا تنهى عن قتال الكفار حتى نقول انها تعارض الأمر بالقتال واستعمال السيف فكانت منسوخة ، وذلك لأنها انما نزلت لتعطينا الثقة في أنفسنا ، وتمنحنا سلطة تحمل مسؤوليتنا بأنفسنا ، وتبين أن من يتلمس الهداية فيهدى فانما يهدى لنفسه ، وأن من لم يفعل « فعلى نفسها جنت براقش » كما يقول المثل .
 والرسول نفسه لا يقدر على دفع الضر عن من يسلكوا سبيل الهداية .

وهذا الأسلوب في التربية من الأساليب التي ينادى بها رجال التربية الحديثة ولا ينسخه شيء .

(١) الأنعام : ١٠٤

صحبة الأشرار والأقوال المسمومة

يؤكد علم النفس الحديث اثر ترداد أى فكرة ومبدأ فى نفس السامع، كما يؤكد آثار الصحبة فى الفرد .

وقد أدرك العرب قديما هذه الحقيقة ، وأقام القرآن تربية المسلمين على أساس هذه المسلمات التى يذكرها علماء النفس . . فقال الله عز وجل فى تجنب أعداء الفكرة الإسلامية وضرورة التعصب لها : « اتبع ما أوحى اليك من ربك ، لا اله الا هو ، واعرض عن المشركين » (١) .

وقال سبحانه محذرا من مخالطة الماجنين الذين لا يأخذون أنفسهم بالجد من الأمر ، ولا يعابون بالدين : « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا . . وفكر به » (٢) — أى بالقرآن — .

وقال سبحانه : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذرُوا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزيهم ما كانوا يعملون » (٣) .

ومن عجب ان يقال : ان آية السيف نسخت هذه الدرر الغوالي . . وقد رفض الجمهور القول بالنسخ . وبينوا أنه لا تعارض بين آية السيف وهذه الآيات (٤) .

* * *

(١) الأنعام : ١٠٦ (٢) الأنعام : ٧٠ (٣) الأعراف : ١٨٠
(٤) النسخ فى الشريعة الإسلامية ص ١٨٥ — ١٨٧ ، ١٨٩ ،
١٩٠ ، ١٩٧ .

وآية المائدة : التي نزلت في اجتناب الخمر انما نزلت لبيان هذا الامر عندما سأل عمر بن الخطاب ربه قائلاً : اللهم بين لنا في الخمر بيناً شافياً . فانزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم الآية «**انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**» (١) كما بين الحكمة من النهي عنها فقال «**انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون**» (٢) .

٢ - اختيار الوقت المناسب للإرشاد :

قال الله لنبيه : «**فتول عنهم فما أنت بملوم** . **وذكر فان للذكرى تفرح المؤمن**» (٣) .

بطلان دعوى النسخ :

قال ابو عبد الله ابن حزم : نسخ قوله تعالى «**فتول عنهم**» بقوله «**ونكر**» .

والحقيقة انه لا نسخ ولا تعارض بين الامرين : فكان الله يقول :
يجب ان تراوح في لقاء قومك ودعوتهم الى الدين بين امرين :

١ - ان تتولى عنهم عندما ترى استغلاق قلوبهم .

٢ - وان تعود الى تذكيرهم عندما تسنح الفرصة ، فان دعوة المعاندين في غورة عنادهم نفخ في تراب ، وضرب في حديد بارد .

وايس اعراضهم عن الاستماع للدعوة بمسقط وجوب التبليغ عندما تخف حدة العناد ، او يجد من الظروف ما يجعلهم على استعداد لتفهم ما يعرض عليهم من الدين ، بل على المسلم ان يهيئ اذهان الجاهلين بدينه ، ولا يقتحم عليهم عقولهم وقلوبهم دون استئذان وتمهيد واعداد .

(١) المائدة : ٩٠ (٢) المائدة : ٩١

(٣) الذاريات : ٥٤ ، ٥٥

وهذا هو ما يقول عنه علماء النفس والتربية : اثاره نشاط السامع
وتهيته للدرس أو لتوجيه ما .

ولا يصح أن يفيب عنا أن الاعراض عمن ليس عنده استعداد
كالراحة الأسبوعية ، أو التي تتخلل في العمل اليومي نشاط التلميذ أو
العامل ، فهو ضرورة لابد منها غير أنه لابد من مواجهة الأفكار المعارضة
التي تحاول اجتذاب الكافر نحوها بما يكشف خطرها وضلالها حتى تترنح
صريعة ، أو تضعف فلا تستطيع دخول قلبه .

وهكذا تكشف الآية أصلاً هامياً في التربية والتعليم قبل أن تظهر
النظريات التربوية الحديثة التي تقر هذه الحقيقة ببضعة عشر قرناً .

* * *

٣ - الهواجس النفسية في علم النفس :

قال تعالى : « وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » (١)

* * *

دعوى التنسخ :

وقد زعم البعض أن الآية نسخها حديث الرسول « ومن هم بحسنة
فلم يعملها كتبت له عند الله حسنة » إلى قوله « ومن هم بسيئة فلم يعملها
لم تكتب له سيئة » .

والحقيقة أن الآية لم تنسخ ؛ فهي تقرر أن للنفوس خواطر ، وللقلوب
أعمالاً سيحاسبنا الله عليها .. والحديث يؤكد هذه الحقيقة ولكنه يتحدث
عن جزاء هذه الخواطر . والجزاء بعد الحساب فهو يقع في المرحلة الثانية من
مراحل المؤاخظة ..

فقد يحاسبنا الله على خطايانا ثم يغفرها لنا تفضلاً منه سبحانه .

وبقى أن نتساءل : لماذا يحاسبنا الله عن الخواطر النفسية ؟

والجواب هو ما يقرره علماء النفس المحدثون من أن سلوك الإنسان
إنما يعمل في توجيهه ما يترسب في « اللاشعور » من الإنكار والهواجس

(١) البقرة : ٢٨٤

في الإرشاد

٤ - التدرج في الإرشاد وتحريم الخمر :

● قال بعض العلماء : ان قوله تعالى : « انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » (١) نزل ناسخا لقوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٢) .

* * *

● والحقيقة انه لا نسخ للآية ، وان حكمها لم يبطل ، فكريان السكران للصلاة منهي عنه حتى الآن . وهذا لا يعارض عموم قوله تعالى « فاجتنبوه » . فحينما أنهى تلميذا عن العدوان على زميله في أثناء الدرس لا يكون هذا معناه انني ابيح له العدوان على زميله في غير وقت الدرس .

واسلوب التربية السليم يقتضي التدرج بالأوامر العملية مع عدم التناقض بين الأوامر . فمن العيب ان نستحسن شيئا امام الطفل ، ثم ننهي عنه بعد ذلك . انما الواجب ان امس بالتقييح بعض ما يتعلق بالمنهي عنه حينما تشتد علة الطفل به . ثم اعمم بالتقييح باقي جوانب ما أنهى عنه .

وهكذا نهج القرآن المنهج العلمي في تحريم الخمر . فهو يقول اولاً في سورة البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما » (٣) فيقبحها ، وينهم العقلاء من عظم الائم كراهية الشارع لها ، كما ينتبه الأقل ادراكا الي ان فيها قبحا . .

ثم تنزل آية النساء تحرم على السكران قربان الصلاة تحريماً صريحاً ، وذلك في صدد بيان احكام الصلاة التي تكتنف الليل والنهار ، فيؤدى هذا

(٢) النساء : ٤٣

(١) المائدة : ٩٠

(٣) البقرة : ٢١٩

التحريم الى تضيق المجال الحيوى لشرب الخمر .. اذ لا يضمن شاربه
الخمر الافاقة للصلاة في موعدها حين يشربها ولو ليلا .. ولذا كان الكثير
من المسلمين لا يشربها خشية أن يأتي وقت الصلاة قبل افاقته .

وكان هذا التمهيد عملا تربويا رائعا قبل نزول حكم تحريمها ..

● ويمكن القول - الى جانب هذا التدرج - بأن النصوص جميعها
ليس في واحد منها اعلان حل الخمر أو الرضا عن شربها ، وانما جميعها
يعلن السخط عليها ويدعو الى تركها في أى صورة كان الترك .

● كما يمكن أن نقول : ان كل آية من الآيات التي نزلت في الخمر
لها موضوعها . غاية البقرة : « قل فيها اثم كبير ومنافع للناس ، وانتموها
اكبر من نفعها » (١) تفيد أن في الخمر اثما ، ولكن فيها فائدة أخرى هي
الفائدة الاقتصادية التي تعود على الأمة من تجارة غير المسلمين في الخمر
وبيعها لغير المسلمين ..

فالآية محكمة تقرر الاثم على المسلم ، وتعترف بالمزايا الاقتصادية من
صناعة وبيع غير المسلمين الخمر لغير المسلمين أيضا .. ولكن هذه الفائدة
خير منها للمجتمع البشرى ان يكف افراده عنها ، فغير المسلم انسان مهما
كان دينه : تضره الخمر وتضعف الطاقة الانتاجية بين غير المسلمين بما
تورثه لشاربيها ولاولادهم من ضعف صحى وعقلى .. ويعود أثر هذا
على المجتمع مرة أخرى .

كما انها تهيج شاربيها حتى يقترف الجريمة ، وتؤثر فيه حتى ينقلب
تدرجيا الى وحش ضار (٢) .

وآية النساء : انها نزلت في بيان أحكام الصلاة وفي نهى السكران عن
الصلاة وحضورها مع المسلمين .

وفي هذا صون لمجتمع المسلمين من عدوى العريضة وما يصحبها من
الفاظ ساقطة قد تعلق بالمجتمع التنظيف الذى بالمسجد ، المجتمع الذى
يشهده النساء والناشئون .. فغلاية مزاياها أيضا في التربية الاجتماعية .

(١) البقرة : ٢١٩

(٢) الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية لعلى أبو الفتوح (باشا)

النفسية والمشاعر .. فاذا عرف المسلم أن مجرد تفكيره في الخطايا سيحاسبه الله عنه ، وهو منكشف لله فهو سبحانه مطلع عليه فانه لا يسترسل في أفكاره الشريرة ، ويستعيز بالله منها ، وينصرف الى ما فيه طائل .. وبهذا تبقى النفس خالية من العقد الهدامة ، ويبقى «اللاشعور» نظيفا الى حد كبير - من دوافع التوجيه السييء .. فضلا عن الراحة التي يحس بها المرء عندما يستريح من عناء التفكير في غير جدوى .

وهكذا يمكن أن نقول عن خواطر الخير والفضيلة حينما تترسب في «اللاشعور» أنها تكون من عوامل الدفع الى السلوك المستقيم .

والإثابة على الخواطر الخيرة ، واعتبار النية الفاضلة عملا : انهما كان لما تنطوى عليه هذه الخواطر والنيات الطيبة من مشاعر لها اثرها في التوجيه الى الخير وعمله .

وهل معنى «سبق الاصرار» في القانون الجنائي الا عمل النفس وهواجسها قبل تنفيذ الجناية ؟ !

هذه نفحة من نفحات الآية كم من الخطر يكتنفنا عندما نبعد عنها الى القول بنسخها .

ومن النتائج التي بنيت على تقدير قيمة الدور الكبير للهواجس النفسية : ان فرق الله في التوبة بين من ألم بالخطيئة دون أن تكون نية جنور عميقة في نفسه تجعله مقتنعا بها مصرا عليها .. ولذا فهو يقدم عليها ويسارع الى التوبة .. وبين من ألم بالخطيئة وقد اعتملت دوافعها في نفسه اعتمالا ادى الى اصراره وادماته عليها .. فهو لا يتوب الا عندما يعجز عن اقرار خطيئته ، او يحول الموت بينه وبينها . فكان راحة نوره التوبة للأول .. وكان شبح العقوبة ماثلا لفجور الأخير .. وهذا هو ما تضمنته الآية « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة لم يسوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما .. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار . اولئك اعتدنا لهم عذابا اليما » (١) .

* * *

ومن عجب ان يقول «هبة الله» : ان آية النساء الاولى «انما التوبة» الخ منسوخة بالثانية « وليست التوبة » الخ .

(١) النساء : ١٧ ، ١٨

وقد رفض جمهور المفسرين قوله ، لأن مفاد الآيتين هو التحذير من
الفسوف في التوبة ، وبيان قبول توبة غير المسوف في الآية الأولى . . .
وبيان عدم رجاء قبول توبة المسوف في الآية الثانية .

والحق أن هناك ضررا اجتماعيا كبيرا يلحقنا نحن البشر من القول
بنسخ الآية « **انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون
من قريب** » . . لأن ذلك يوصد باب الرجاء في الله ، ويملا القلب باليأس
من رحمته ، فيسترسل المخطيء في خطاياهم ، وينشر الرذائل والشرور في كل
مكان . . تلك الرذائل والشرور التي تعوق ركب الحضارة عن التقدم . .
بينما يفيدنا - اجتماعيا - القول بأن الآية محكمة ، وأن باب التوبة مفتوح
للذين يسرعون بالضرعة الى الله ، وبالانسدم على ما اقترفوه ، ذلك لأنه
بالتوبة نقطع خيط الرذيلة من أن يطول . . وندفع المستغفر الى التكفير عن
خطيئته بعمل صالح . . فالتوبة ليست مجرد كلمات تموت على الشفاه وإنما
« **اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** » (١) . وهذا فيه ما فيه
من صالح المجتمع وتطهيره وشحنه بالصالحات .

* * *

في طريقة تدريس المحفوظات

قال الله تعالى : « **ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يلقى اليك وحيه** » (٢)

* * *

مناقشة القائلين بالنسخ :

قال أبو عبد الله : نسخ معنى هذه الآية بقوله تعالى « **ستقرئك
فلا تنسى** » (٣) .

١ - وهذا القول باطل : لأن قوله سبحانه : « **ولا تعجل بالقرآن من
قبل ان يلقى اليك وحيه** » فيه امر الرسول بالآلا يتعجل بالقراءة حتى
يفرغ الوحي من قراءته ، إذ أن الاصفاء التام ضرورة للحفظ الجيد كما
يقول علماء التربية الحديثة . . وهذا وجه من وجوه تفسير الآية . يتضمن
الوسيلة التي تحقق الغاية التي في الآية الأخرى « **ستقرئك فلا تنسى** » .

(٣) الأعلى : ٦

(٢) طه : ١١٤

(١) فاطر : ١٠

٢ - ويقول بعض المفسرين : المراد بالآية الأولى الا يتعجل الرسول بإتراء الصحابة ما نزل عليه من قبل ان يتبين المعنى المراد من الوحي ، فان الفهم قبل التلاوة هو سبيل الحفظ الجيد . . وهذا الوجه يبين أيضا ما قرره اساتذة التربية في طرق تدريس النصوص . فانه لا يصح التحفيظ فلنص قبل اجادة النطق به ثم فهم المراد منه . . وبعد ذلك يكون الحفظ هو المرحلة الأخيرة .

وهكذا كان النبي يتلوا الآية ، ويمليها ، ثم يوضح غامضها ثم يأخذ الصحابة في حفظها .

واما قوله سبحانه « سنقرئك فلا تنسى » فانه يطمئن الرسول على الحفظ ، وعدم النسيان اذا هو لم يتعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليه وحيه ، فالوحي كلمة يراد بها لفظ القرآن ومعناه . . فهي تجرى مع آية « طه » في مضمار واحد ، ولا تتعارضان . . وعلى هذا بطل القول بالنسخ .

* * *

مقابله كبار الشخصيات

قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم واطهر ، فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم . اشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ، فاذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقبموا الصلاة وآتوا الزكاة واطيعوا الله ورسوله ، والله خير بما تعملون » (١) .

* * *

مناقشة دعوى النسخ :

قال أبو عبد الله بن حزم : الآية الأولى من الآيتين السابقتين منسوخة بالثانية . وذلك لتوهمه التعارض بين الآيتين . وليس هناك تعارض .

اذ ان الآية الأولى تطلب من المسلمين الا يؤذوا رسول الله بلغو القول،

(١) المجادلة : ١٢ ، ١٣

وأنهم بالحرص على وقته : كما في سورة الأحزاب « فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستانسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق » (١) .

غير أن آية المجادلة التي نتحدث عنها تأتي بالأمر الذي يقف حائلا بين المسلمين وبين الاسراف في مناجاة الرسول في شئونهم الخاصة التي لا تتصل باندبين ولا بصالح المجتمع . . هذا الأمر الذي أتت به الآية هو ضرورة التكفير بصدقة عن هذه الجريمة ، جريمة اضاءة الوقت على امام جماعة المسلمين ورسول رب العالمين .

وفي آية المجادلة الثانية تأكيد للمعنى نفسه بصيغة أخرى من صيغ الطلب ، وهي الاستفهام الذي معناه : انه يجب الا يفزعكم هذا القرار ، اعنى قرار تقديم صدقة « ائسفتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » ؟ ثم تفتح هذه الآية الثانية باب الصدقة على أنواع أخرى غير صدقة المال ، وهي الزكاة المفروضة ، والصلاة ، وطاعة الله ورسوله بالبعد عن المحرمات والمنهيات . ومن المنهيات مناجاة الرسول في غير دين أو خير اجتماعي ، فليس بينهما تناسخ أو تعارض .

* * *

وليس بغريب أن تتوسع الآية الثانية في مدلول الصدقة فقد جاء في السنة هذا التوسع حين قال بعض الصحابة للرسول : ذهب أهل الدثور بالأجور : يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ولهم من فضول أموالهم ما يصدقون به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ ! في كل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليل صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفي بضع (٢) أحكم صدقة » . . وفي حديث آخر « وأن تضع اللقمة في في امرأك صدقة » أي في فمها . وكان الآية الثانية تقول أيضا : اتخافون التقصير في تقديم صدقة عند كل مناجاة للرسول ؟ ! . . ان لكم من أمور الدين كالصلاة والزكاة وغيرهما من العبادات والواجبات ما يمكن أن يشغل وقتكم عن لغو القول فيبقيكم الوقوع في طلب الصدقات عند مناجاة الرسول .

* * *

(٢) أي جماع الزوجة .

(١) الأحزاب : ٥٣

الآية في حياتنا الاجتماعية :

أرى أن هذا الأدب الذي الزمنا به الله مع الرسول واجب اجتماعى على الأمة مع أئمة الإسلام وزعماء الإصلاح الدينيين - أو من نسميهم كبار الشخصيات وذوى الشأن - وذلك حرصاً على خير الدين والجماعة الإسلامية . . وهكذا قل في شأن المشتغلين بالأمور الفكرية والسياسة العامة فإن ذلك يؤذيهم ، وإيذاء الناس حرام . . والسيئات لا يذهبها إلا الحسنات كما هو واضح في الشريعة . وكل من اشتغل بالبحوث الفكرية أو التجريبية أو بالإصلاح الدينى أو الاجتماعى أو السياسى يعرف كم عنت يلحقهم من لغو الزائرين وخوضهم في أمور غير ذات بال .

آراء أخرى :

ولست أول من أنكر نسخ الآية فقد قال بذلك أبو مسلم الأصفهاني ، كما أن من القائلين بمبدأ النسخ في القرآن علماء أنكروا نسخ هذه الآية « إذا ناجيتم الرسول » لأنهم يقولون بأن النسخ لا يكون بلا بدل من المنسوخ (١) .

ومع هذا فإنه لا سند للأحاديث القائلة : بالنسخ ، ولا دليل على أنه لما امتاز المنافقون على المسلمين نزلت الآية الناسخة ، فمتى امتازوا ؟ وهل المنافق الذي قد يدفعه نفاقه الى الخروج في الغزوات يبعده عن القرب من الرسول والتجسس عليه صدقات تفرض عليه ؟ !

(١) الإكليل ص ٢٠٧

خاتمة

أولا - في بحثنا :

هكذا وجدنا من مناقشة القائلين بنسخ آيات من القرآن الكريم أن وجود التباين بين الآيات غير قائم . وإذا أمكن التوفيق بين آيتين لم يجر القول بالنسخ باتفاق جميع العلماء الذين يقولون بوجود النسخ والذين ينكرون وجوده .

* * *

وتبين لنا من عرض هذه الآيات التي كان يقال بنسخها واثبتنا أنها ليست منسوخة : شيئا هاما وجديرا بأن نسجد لله شكرا على انعامه به علينا ضمن ما أنعم به من تشريعات في القرآن على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

تجد تبين أن هذه الآيات التي جرد عنها بعض الباحثين السابقين : تحمل من المبادئ الحضارية الواعية المستنيرة ما لم يصل إليه أرقى فكر تقدمي معاصر .

ففي مجال العدالة الاجتماعية : رسمت هذه الآيات التي أهملها المشرعون القدامى نمطا من الأنظمة الاجتماعية يعمل على التقريب بين الطبقات مع رفع مستواها الاقتصادي جميعا ، وأنها سنت التشريعات التي تكفل عدالة توزيع الثروات في رفق ورحمة وعواطف نبيلة .

وفي الميدان السياسي : رأينا هذا النوع من الآيات التي هجر العمل بها دهرًا طويلا ما يلبي نداء الحاجات الإنسانية الصارخة ، ورأينا أنها تأتي في موضوع السلام والحياد الإيجابي والأخلاف والصلح والهدنة والمشكلات الطائفية . والتقية (الدبلوماسية) والتناقض أو التقديمية الارتقائية .. وما إلى ذلك من الأبحاث السياسية الحديثة بما يعيد إلى نفوسنا الثقة بكتابنا وديننا ، وما يزيدنا إيمانا بالرسول الذي جاءنا بهذه البينات المشرقات وهو الذي قيل فيه - عليه الصلاة والسلام - :

« ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له

ما في السموات وما في الأرض ، الا الى الله تصير الامور » (١) .
 « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذن لارتاب
 المبطلون : بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم ، وما يجحد
 بآياتنا الا الظالمون » (٢) .

* * *

بل وجدنا في هذا النوع من الآيات ارقى ما وصل اليه التشريع ورجال
 ائقانون الحديث في موضوع « تعديل الشهود » و « شخصية الاحوال
 الشخصية » والقصاص ، ورعاية المرأة ، وحماية الآداب .

ثم ظهر لنا أن هذا النوع من الآيات تضمن في التربية الاجتماعية
 من التخطيط والمقررات العلمية ما يهتف به الآن رجال علم الاخلاق وعلم
 انفس . في الشرق والغرب على السواء .

ولا يصح أن يغيب عن الأذهان أن القرآن كل لا يتجزأ : فهذه الآيات
 حينها تخطط خطوطا في نظام الاسلام لا ترسم صورته الكاملة ، فالجزء غير
 الكل كما يقول الفلاسفة .

وجماع ما نهدف اليه من وراء هذا البحث ان نرسم طريقا للعمق
 الفكرى الذى يسميه البعض عند ظهور نظريتنا في النسخ لونا من التطور في
 دراستنا الاسلامية ، وان نذيب الجهود الذى لحق بالمتأخرين من الباحثين في
 الفقة ، وكاد يجعل منه صفة لاصقة بالاسلام — لتبرز عظمته لأولئك الذين
 بهرتهم الدراسات الاجتماعية والقانونية والسياسية التى ظهرت في أمم لها
 بيننا مكان مرموق ، وفي المدنية تفوق لاينكر .

وعسانا بعد ذلك أن نكتشف من جلال الاسلام ومثانة مبادئه ما يقنعنا
 بضرورة التحول من حياتنا المادية المتناقضة الى ظلال الحياة الاسلامية
 المؤتلفة المتناسقة الراقية . فيعم العالم الرخاء والتراحم والسلام .

* * *

(١) الشورى : ٥٢٠ ، ٥٣ (٢) العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩

ثانيا - مع الفقهاء القدامى :

حاول الأستاذ فتحى عثمان أبراز صور لجوانب التقدمية فى حياتنا المعاصرة فى ضوء الفقه الإسلامى فى كتابه « آراء تقدمية » وهى آراء بعضها فى حاجة الى نقاش ، ولكنها - بالرغم من هذه الحاجة - ترينا مدى سعة الفقه الإسلامى ورحابة آفاق فكر فقهاءنا رحمهم الله أجمعين .

فى توزيع الثروة :

تحدث الكاتب عن عدالة توزيع الثروة ، وعن تملك الأرض لمن يزرعها . ونقل دفاع ابن حزم عن حديث رافع بن خديج « نهى رسول الله عن كراء الأرض » ، وحديث جابر بن عبد الله : « نهى رسول الله عن أن يؤخذ للأرض أجر أو حظ » . ثم زعم ابن حزم نسخ الحديث الآخر بالمزارعة ، اذ ثبت أن الرسول أعطى خبير لليهود على أن يزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها .

وقد خالف ابن حزم فى هذا الإمام أبانيفة ومالكا والشافعى وأبا يوسف ومحمدا وزفر وأبا سليمان ، اذ أنهم اتفقوا على جواز كراء الأرض .

وقد وافق ابن تيمية هؤلاء الأئمة وزاد على هذا أنه يرى أن الجوائح توضع فإذا أصابت الزرع آفة من الآفات أو سقط الثمر بآفة (لم يقصر المستأجر فى دفعها والتوى منها) (١) .

فإن الأجرة توضع ولا تجب . وأنا مع ابن تيمية والأئمة السابقين فيما افتوا به هنا .

وما زعمه الأستاذ محمود أبو السمود من أن الأرض ليست سلعة استهلاكية ، ولا من عمل الناس وانشأتهم حتى لاتجوز مقارنتها باجارة الدار أو الآلة ، مغالطة يعرفها الفلاحون جميعا :»

فالفلاح لا يستأجر أى قطعة من الأرض ولو كانت مستنقعا أو قبة جبل أو واديا حجريا ، وإنما يستأجر أرضا عملت فيها يد الانسان كثيرا ، فشقت لها الأنهار ، وسوت ما فيها من مرتفعات ، وبذلت كثيرا من الجهود

(١) ما بين قوسين شرط مفهوم زدته فى العبارة .

التي احوالت هذه الخامة الطبيعية المستعمية على الانبات — وهى الارض — شيئا آخر هو الارض الزراعية التي نسميها حقولا أو حدائق ، تماما كهذه الحجاراة التي عملت فيها يد الانسان فجعلت منها دارا أو مصنعا وكهذه الأشجار والغابات الطبيعية التي أنشأنا منها بواخر أو منازل أيضا ..

وفوق الاستصلاح هناك حراسة الارض المستصلحة ، فكم رأينا من اراض أهمل أهلها حراستها قليلا فأصبح بها كثير من الحفر والمنخفضات التي أفقدتها صلاحيتها للزراعة .. ذلك أن بعض الناس أخذوا من ترابها في غيبة حراس الأرض ما جعلها في حاجة الى استصلاح .

في التعليم :

وقد ذكر الأستاذ فتحى فرضية التعلم ، وبين أن كل انسان يحتاج جانباً من الثقافة يحتاج اليه في دينه أو دنياه ، وهذا الجانب فرض عليه الاسلام أن يسعى الى تعلمه ، وفرض على الدولة والمجتمع أن يوفر له ما يحتاج اليه من جوانب الثقافة . فلا يتعلم المرء ما يفيدته وما لا يفيدته وإنما يتخير ما ينفعه .

في تحرير المرأة :

ثم تناول الكاتب حقوق المرأة : فأورد ما ذكره ابن حزم عن جواز تولى المرأة الاشراف على الأسواق ، وكذا تولى القضاء ، ونقل فتوى أبى حنيفة عن جواز توليها الحكم . والخروج للحج والجهاد والتعلم ، ثم فتوى المرحوم محمد فريد وجدى بجواز منحها حق الانتخاب والحصول على النيابة التشريعية ..

وهى آراء تدل على ما يمكن أن نسميه النزعات التقدمية التى منحها الاسلام لعلمائه ، ولكن الكاتب — غفر الله لى وله — أسرف على نفسه حين جعل قوله تعالى « **وقرن فى بيوتكن** » أمراً مقصوراً على نساء الرسول وليس تشريعاً عاماً لسائر النساء « (١)

ونسى أن الخطاب — وان كان فى معرض الحديث الى نساء الرسول — إنما يراد به عامة النساء تماماً .. كقوله تعالى : « **يا أيها النبى اذا طلقتم**

(١) آراء تقدمية ص ٤٣

النساء فطلقوهن لمدتهن» (١) ، وقوله « يا أيها النبي لم تحرم ما أهل الله لك » (٢) . الآيات ، وقوله « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التي حرمها » (٣) وهكذا الأمر الصادر للامة مخاطبا الصحابة في مثل قوله تعالى « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم » (٤) .

ثم الا يقرأ اذى ما تبع قوله « وقرن في بيوتكن » (٥) من ارشادات « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، واقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله » (٦) وهى ارشادات لا يمكن أن تكون خاصة بنساء الرسول . بل أن عموم التكليف بها لسائر النساء من البدهيات .

ولما كان الله يخاطب المسلمات في شخصية زوجات الرسول ناسب المقام بيان نتائج هذه التعليمات ، وهى أن يذهب الله الرجس عن كل بيت يعمل بها . . وتخصيص آل البيت ليس مقصودا به قصر الحكمة والحكم على نساء النبي . . فلو أن أهل أى بيت آخر عمل بهذه الوصايا لذهب عنه الرجس وطهر . وهذا من المسلمات . .

ولما كان هذا التخصيص غير مقصود به القصر على نساء النبي أعاد هذه التعليمات بروحها في صورة عامة فقال : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات ، والصابرين والصابرات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » (١) .

وهل حفظ الفرج وتبطل المرأة بحيث تبعد عن مزالق الفتنة مع الاشتغال بباقي الوصايا لا يتضمنان القرار في البيت — بحكم الضرورة انعمية للوصول الى تبطل وحفظ للعفة حفظا تاما مستيقنا ؟ الا يتضمنان هذا الحكم الذى فى الآية « وقرن فى بيوتكن » ؟ لاشك ان هذا يتطلب . . ولو لم يكن هناك نص — ضرورة التزام المرأة بيتها الا لحاجة . ليس عدم خروج المرأة من منزلها الا لحاجة هو الطريق الطبيعى لتظل المرأة قانتة آمنة من خطايا الفرج ومزالقها التى تتمثل فى النظرة والابتسامه التى تد

(٢) التحريم : ١

(٤) الأنعام : ١٥١

(٦) الأحزاب : ٣٥

(١) الطلاق : ١

(٣) النمل : ٩١

(٥) الأحزاب : ٣٣

تكون بريئة في أول الأمر ، وفي الاعجاب بالآخرين .. وفي كل امرئ غالبا جانب يتميز به عن سواه ، وبه يكون موضع الاعجاب وان لم يكن في باقى جوانب الشخصية هكذا .. وقد يكون هذا الجانب غير ذى بال بالنسبة للجمهور . ولكنه ذو بال بالنسبة للمرأة .. ولو لامرأة واحدة بسبب ظروف خاصة بها .. وهذا الاعجاب وحده باب للشيطان وأى باب ؟ !

والم تأمل لآية « وقرن في بيوتكن » الخ ينهم منها عموم التشريع للنساء . فهى تأمر نساء النبي ببلزمة البيت الا لضرورة ، وبعدم التبرج ، وبالصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله ، ثم تعلل لهذه التعليمات بأنها هى الوسيلة التى يمكن ان تتطهر بها المسلمة من رجس الشيطان وتنتقى الوقوع فى الاثم .

ومعنى هذا أن الله يقول : اذا كانت الوسيلة التى تتخلص بها المسلمات عامة من رجس الشيطان هى هذه الأوامر فان عليكن يانساء النبي التزامها لتكن مطهرات من الاثم .. فالآية بهذا المعنى للنساء ، وان كان هذا العموم مفهوما من خطاب خاص .. حتى ولو فسرنا قوله « وقرن » بمعنى كن وقسورات محتشمات باعتبار الفعل مشتقا من كلمة « الوقار » وليس من « القرار » ، وذلك جريا وراء القراءة الأخرى « وقرن في بيوتكن » بكسر القاف .. اذ الوقار مطلوب شرعا من المسلم والمسلمة فى عامة الأحوال ، كما توحى بهذا روح النصوص الدينية .. ولعل التفسير بالوقار واضح المناسبة لقوله بعد ذلك « ولا تبرجن » وقوة العلاقة بين الأمر والنهى واضحة حينئذ .

والأمر لا يتغير لو فسرنا آل البيت بمن تحرم الصدقة عليهم وهم آل عقيل وآل جعفر وآل عباس وآل على كما فى تفسير زيد بن ارقم ، أو بان آل البيت هم فاطمة الزهراء والحسن والحسين وعلى كما هو المروى عن أبى سعيد الخدرى وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة (١) .

وقد فرق الكاتب بين الخلوة والاختلاط : وهذا صحيح ، فالخلوة منهى عنها - مهما كانت الأسباب - أما الاختلاط فمنهى عنه فيما عدا الضرورات .
السنا نتكلف نحن الرجال فى حديثنا للنساء ما لا نتكلفه فى حديث الرجال .
وقد يكون لطبيعة المرأة فى تفكيرها ومنطقها ما يحمننا على هذا التكلف ..

ولكن مع هذا — حتما — شئ آخر تنطوى عليه نفس الرجل عندما يتحدث مع أنثى أو يخالطها .. والاحساس النفسى الفطرى بهذا : هو الفيصل .. وان كانت المغالطة اللفظية والجدل البيزنطى فى هذا المجال أمر غير عسير . ومن قال لسيدى الاخ أن الريف المصرى برىء .. تماما . ألم يسمع عن حوادث القتل بسبب المرأة فى الريف ؟ !

حدثنى من أتق به أنه رأى فلاحه كانت تسهر فى الحقل مع زوجها لتسوق له الماشية الدائرة فى الساقية .. وقد أتى أحد أقارب الزوج الى هذا الحقل لمعاونة تربيته .. وبعد سهرة واقع القريب هذه الفلاحة بينما زوجها يعمل بعيدا عن الساقية .. ولم يكن هناك فراش ولا غطاء ولا ساتر غير الليل بالعراء .

ودفعت الغيرة محدثى — وقد كان ساهرا بالشاطيء الآخر ليسوق ماشيته الدائرة بالساقية المتابلة — الى أن يخجل هذا الأثم .. فما كان منه الا أن قبل رأسه ويده قائلا هذه الكلمة المعروفة : « ان الله حليم ستار » . وكم كانت فرحة محدثى حين مات الوليد الذى أتت به هذه المرأة من غير زوجها . — فيما ظنه المتحدث — فجاء يقول لى : هكذا يأبى الله أن تختلط الأنساب فمات ابن الحرام رضيعا وهو فى عنقوان قوته .. فما أجل حكمة « الستار » العليم .

هذا مما حدث ويحدث بالريف .. وله نظائر فى صور شتى .. وهذه هى نتيجة الاختلاط الهادئ بالثياب القروية ، مع أن الفتى كان متزوجا زوجة أجمل منظرا ، وكان مستقيما طبيعيا .. ويصلى .. ولكنها طبيعة الاختلاط التى قد تدفع الى الجريمة فى خلوة وفى غير خلوة اذا ظن الجانى أن الجريمة لا تنكشف .

حقا : كانت هذه الجريمة من عوامل اندفاع الفتى بعد هذا الى ميادين الخير ومجالات التقوى والصلاح .. ولكن هذا لأن معدنه الأصيل معدن طيب . « والناس معادن كمعادن الذهب والفضة » . ان المجتمع المطئن — هو الذى لا تختلط فيه المرأة بالرجل الا لضرورة وخروج عائشة فى أيام الفتنة .. انما كان لضرورة رأتها ، اذ قرأت لمن أنكر خروجها « وان طائفان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (١) .

وخرج المرأة للعبادة في الحج والاعیاد انما یصحبه من المشاعر
والاحوال المصاحبة للمرأة في عبادتها ما یحميها ویحمینا من الفاحشة .

* * *

وقد بالغ أخى الكاتب في قوله : ان الاسلام لا یقیم المجتمع الانفصالى ،
وهو الذى فرض على المرأة حضور الجمع والجماعات والاعیاد ..

من قال لأخى انه فرض ذلك ؟ ! أبدا أبدا . وفرق بين جواز حضور
الجمع والاعیاد وبين الغرضية .

الا یذكر أخى صفة صلاة الجماعة والاعیاد ، وان النساء یكن خلف
صفوف الصبيان ، والصبيان خلف صفوف الرجال .. وان الرسول جعل
للساء بابا خاصا یخرجن منه بعد الصلاة واستماع عظة الرسول .
ولا يزال المسجد النبوى یحمل أحد أبوابه اسم « باب النساء » حتى الآن ..
والا یذكر أن صلاة المرأة في خدرها أفضل من الصلاة في مسجد الأسرة
وان الصلاة في مسجد الأسرة أفضل من الصلاة في المسجد الجامع .. ؟ !

والا یذكر أن النساء اللاتى كن یخرجن الى المسجد لم یكن یخالطن
الرجال في الطريق ، وانما یأخذن جانبه حتى استفتت احدهن الرسول
فيما یصیب اذیالهن من النجس الذى یكون عادة بجوار جدران المنازل قبل
ان تنتشر فكرة بناء المراحيض فأنتاهن علیه السلام بأن التراب
له ظهور ؟

وهل نسی أخى أن ما كانت تقوم به المرأة في الحرب كان في الخطوط
الخلفية دائما الا عندما تحملهن الضرورة والخطر على مجالدة أعداء الدين ،
والدفاع عن العقيدة والعرض .. ؟ !

وهل نسی هذه الآثار العديدة التى أوردها ابن الحاج في المدخل :
یحذر فیها من ان یشم رجل انفاس امرأة ، او تشم امرأة انفاس رجل .. ؟ !
ان ما حدثنا به الكاتب عن « الشفاء » في أمر امارتها على السوق یحتاج
بحثا .. أهو عموم السوق كما هو ظاهر العبارة .. وهو ما تأباه طبيعة
العربى والنقائید العربیة وروح الرجولة والنخوة في الاسلام .. والعرف
العربى .. ؟

أم هو سوق النساء الذى كن یعرضن فيه غزلهن وما یختص النساء
ببیعه ویشتهرن به .. وهذا التخصص في الأسواق والتمایز في الأسواق

بين الرجال والنساء ، لا يزال حتى الآن قائما في اسواقنا المصرية بالريف والمدن الصغيرة ؟ !

كما يحتاج اختيارها بالذات دون غيرها لهذه الامارة بحفا آخر .. يجعلنا غير قادرين على أن نفتى بما افتى به الكاتب قبل أن نستوفى الاجابة عن هذه الاسئلة وغيرها .

وهل نسى أخى الأثر القائل : لأن يزحم احدكم خنزيرا ملطخا بطين أو حماة ، أهون من أن يزحم منكبه منكب امرأة ؟ ! .

انى لأخشى أن يفسر أخى شم الانفاس وتزاحم المناكب بأنه كناية عن الجماع ومقدماته ، لا بأنه كناية عن الاختلاط الذى نعرف أن هذا الذى ذكرناه من مظاهره فى عصرنا هذا .

لست أدري : اليس فى كل هذه الأحكام والنصوص ما يطمئن الكاتب الى أن الاسلام يقرر تحريم الخلوة ، وتحريم الاختلاط ما لم تدفع الى الاختلاط ضرورة مشروعة بالزى الاسلامى الذى لا تظهر معه مفاتن المرأة وبالشروط الأخرى التى ذكرها الكاتب فى كتابه ؟

الا انه عندما كان المسلمون يفهمون هذه الحقيقة كان الاسلام يزحف بالسعادة والرفاهية فى كل مكان ونحو كل صوب شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

ان اختلاط المرأة بالمجتمع النسائى : كثيرا ما يفسدها ، اذ يصرفها عن التفكير فيما يسعد بيتها ، وفى واجباتها المنزلية — الى مشكلات نسائية أخرى ، وأفكار تافهة ناقصة ، لا يمكن الا أن تكون ناقصة بحكم قانون الفطرة الذى جعل العقلية النسائية لها حدودها التى تحول بينها وبين مغالبة الرجل ، حتى لا تكون الحياة المنزلية صراعا قتالا . لاسلاما وسكينة .

ويدرك هذا كل من عاشر زوجين ، وكانت الزوجة ذات ذكاء حاد ولم يكن الرجل على ذكاء أعظم منه .. والحمد لله هذا نادر وشاذ من ناحية الذكاء الفطرى لا الموروث المكتسب .. وحتى هذا الأخير — لا يكون غالبا الا فى مجال الشر . أو فى مجال التهذيب والتدريب على الأخلاق الاجتماعية الراقية .

* * *

ولهذا : كانت المرأة التى تجلس فى البيت مشغولة بأعبائه الجسام ، فلا تفارقه الا لضرورة كتعلم ، أو عمل جدى ينفع الأسرة أو المجتمع . هى

المرأة الأقرب الى الاسلام ، والأكثر اسعادا لمنزلها ، والأكثر نجاحا في حياتها الزوجية ..

فاذا كان هذا هو المشاهد في اختلاط المرأة بالمرأة اختلاطا مسرفا ..
فما باننا بالاختلاط حين يكون بالرجال ؟ !

* * *

وفاق مع الفطرة

في الغناء :

دعا الكاتب الى اياحة الغناء ومجالسه مالم يكن موضوع الاغنية مردولا . او الغرض من السماع خبيثا ، او الوسط فاسقا او منحطا لم يحضر مجالس الغناء للفن وهوايته انما حضر للعبث وغايته .

ثم أخذ يثبت أن الموسيقى الأوروبية تأثرت بالمؤلفين المسلمين وقواعدهم، ومن قادة هذا الفن من قدماء العرب الخليل بن أحمد في القرن الثامن الميلادي ، والفارابي في القرن العاشر الميلادي ، ونقل عن المستشرق الفنسان الكبير الأستاذ « ه . ج . فارمر » انه قال في كتابه (تاريخ الموسيقى العربية) : ان تحريم المسلمين للموسيقى متوارث من تقاليد الساميين الذين يكرهون الخمر والنساء والغناء ، وأن تاريخ هذا التحريم — في نظر بعض المستشرقين لم يبدأ الا على يد لاهوتى العصر العباسى ، لأن القرآن ليس فيه نص يشير الى التحريم ، بل ان العرب في حياتهم الاجتماعية ما كانوا يستطيعون الاستغناء عن الغناء (١) .

* * *

وما قاله هؤلاء المستشرقون خلط ينافى الواقع العلمى والتاريخى ، فالتواراة اقدم الآثار السامية الموجودة بيننا : ليس فيها هذا الذى قالوه عن كراهية الساميين للخمر والغناء .. بل فيها الكثير من حديث الخمر ومجالسها واياليها الغناء الحمراء وبخاصة عندما تحدثنا عن داوود ، وأيوب .

وما قاله « فارمر » من ان حياة العرب الاجتماعية لم تكن تستغنى عن الغناء ومجالس السمر هو الصحيح .. بل ان حياة الشعوب البدائية وقبائلها

(١) آراء تقديمية ص ٧٧

الرجل كلها لا تستغنى عن ذلك لحاجة نفسية . . فتوقيت تحريم الغناء في الاسلام بالعصر العباسى قول لادليل عليه ، لأن ما اورده البخارى عن التحريم لم يكن الا نقلا عن كانوا في صدر الاسلام ، وان كان البخارى نفسه من ابناء العصر العباسى .

والذى ناخذه على ابن حزم في هذا الموضوع هو انه يضيف الى قواعد مصطلح الحديث ما لم نعرسه ، وذلك حين يعتبر قول البخارى « قال هشام بن عمار » سببا من اسباب الانقطاع في سند الحديث ، بحجة انها صيغة لاتتيد أن هشاما لقي البخارى واسمعه الحديث . (١)

ناخذ هذا على ابن حزم وراويته ، لأن عادة البخارى انه حينما يكون قد سمع ثقة حدثه عن آخر أن يقول : قال فلان ، وهو لا يروى لفلان هذا الا اذا كان من نقل عنه ثقة عند البخارى . . وطبقا لهذه القاعدة يكون حديث البخارى عن هشام بن عمار صحيحا وموثقا وهو قوله عليه الصلاة والسلام « ليكونن من أمتى قوم يستعملون الخبز والحريير والخمر والمعازف » ولقد كان أهون خطبا من توهين حديث البخارى أن يفسر قوله : « والمعازف » بمجالس المعازف الجاهلية التى كانت تدار فيه كئوس الطلا ، مادام الكاتب قد امتنع بما أفتى ابن حزم فيه نفسه عند تأويل الأحاديث التى تناولت الغناء وأسمته (مزار الشيطان) . وفى قواعد اللغة ما يسمح بهذا التأويل : إذ أن العرب قد يطلقون اللفظ ولا يريدونه انما يريدون شيئا يتعلق به وهو هنا المحلية . أى المكان الذى يحل به الغناء ويوجد فيه .

ولا أدرى كيف استباح أخى « فتحى » لنفسه أن يستشهد بأقوال الاخباريين ورجال الأدب كأبى الفرج الاصبهاني وابن قتيبة وغيرهم ممن لا اختصاص لهم بالفقه والسنة - وهو يتحدث فى الموضوع من وجهة نظر الشريعة وفقهها ، لا الأدب وتاريخه - وهو الذى قال (٢) عن هذه الروايات : انها لم تضبط ولم تمحص ، « وأنها تعكس معانى خاطئة تلبس على القارئ والباحث وجه الحقيقة » ؟ !

فى الحب :

تحدث أخى عن اهتمام الفقيه الكبير ابن حزم الأندلسى بالحب وافراده لذلك كتابا خاصا هو « طوق الحمامة » الذى قال فيه : « الحب اوله هزل

(١) آراء تقديمية ص ٥٧

(٢) أضواء على التاريخ ص ١٣٤ ط اولى

وأخذه جد ، وله معان دقيقة لا تترك الا بالمعاناة ، وليس بمنكر في الديانة ، ولا بمحذور في الشريعة » .

ثم تحدث عن معنى الصلاح فقال : المرأة الصالحة هي التي اذا ضبطت انضبطت . واذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . . اما الفاسدة فلا تنضبط بل تسعى الى اسباب الفساد بثتى الحيل ، وكذا الصالح في الرجال هو من لا يداخل اهل الفسوق ، ولا يتعرض الى المناظر الجالبة للأهواء . اما الفاسق فيداخل الفساق ، ويعرض نفسه لما يفسدها ، والصالح من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرمال : لا تحرق من جاورها — اما الفاسق فهو كالنار المشتعلة تحرق كل شيء .

ثم يصحبنا الكاتب في رحلة مع ابن القيم في كتابه « روضة المحبين ، ونزهة المشتاقين » ، فنرى ابن القيم يقرر أن الحب فطرى في الانسان مادام حيا . . ولذا لم يحرم الله الحب ، بل حوله الى نكاح ما طاب من النساء : من واحدة الى اربع ، فانصرف الهوى من محل الى محل . وكانت الريح دبورا فاستحالت صبا . .

وكذلك هوى الظفر والغلبة والقهر : لم يأمر الله بالخروج عنه ، بل أمر بصرفه الى الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه ، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره ما يمرنه ويعدده للظفر .

وبهذا يسبق ابن القيم علماء النفس في تقرير قوة الغريزة الجنسية التي يراها « فرويد » ، وقوة غريزة حب السيطرة واعتبار الذات التي يقول بها « أدلر » (١) .

كما ذكر ابن القيم أسباب الحب في كتابه وهي :

- ١ — وصف المحبوب وجماله
- ٢ — شعور المحب بالمحبوب وجماله .
- ٣ — العلاقة والمواصلة بين المحب والمحبوب .

وقد تناون الفقيه ابن القيم في نهاية كتابه نهاية الحب ، وأفضلها ما ادى الى الزواج كما في الحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عباس أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله عندنا يتيمة قد خطبها رجلان : موسر ومعسر ، ونحن نهوى الموسر . فقال : « لم ير للمتحابين مثل التزويج » .

النظر للمرأة الأجنبية :

كل ما نقله اخى عن الحب واثبتناه ليس فيه ما يضره ، ولكنه ختم حديثه بما نأخذه عليه اذ أنه نقل عن أبى بكر محمد بن داوود الأصفهاني جواز النظر الى من لا يحل زواجه بها . . ولم يرد عليه بما يبطل رأيه ، وبين فساد قوله ، ولكنه كثر عن هفوته هذه بدرر غالية لابن القيم تدفع ما أوهمه الكاتب قبل ذلك من الاباحة المطلقة لالوان الهوى . .

فقد ذكر ابن القيم أن النظر والتفكير والتعرض للمحبة أمر اختياري ، فاذا اتى بالأسباب كان ما ترتب على السبب بغير اختياره ، وانما يرغب عليه ارغاما فطريا كما في قول الشاعر :

تولع بالعشوق حتى عشق
فلما استقل به لم يطق
تمنى الاقالة من ذنبه
فلم يستطعها ولم يستطق

ومن هنا كان سد الذرائع واجبا . . وكان تحريم النظر والتفكير الذي هو مظهر من مظاهر احلام اليقظة أمرا واجبا .

وعليه فالمرء يتحمل مسئولية النتائج التي تترتب على بواعث الحب ، فقد يكون الاستماع جائزا ، ولكنه عندما ينتهى به رويدا رويدا الى الحرام يكون حراما .

ولذا كان الاستماع المباح هو مالا يصرف عن الله ولا يوصل الى الشهوات المحرمة ، ولذا كان خير ما يصح أن يبحث عنه المرء هو حب الله وحده . . أما الذين يدمنون الشهوات فانهم يصيرون الى حالة لا يلتذون بها . . ولا ييلفون درجة الاشباع . . وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها . وهكذا رأينا في هذه الخاتمة أن الفكر الحضارى الذى يسمى اليوم بالتقدمية له معالمة في الآيات المنسوخة ، وأن هذه الآراء ليست نضح التطور العصرى فى نفسى ، انما هى اصيلة فى اسلامنا وفقهه ، وقد رأينا نضحها فى فقه السابقين كابن حزم المتوفى سنة ٥٦٦ هـ ، وكابن القيم بعد ذلك (٦٩١ - ٧١٢ هـ) . وغيرهما على مر العصور . « صيغة الله ، ومن احسن من الله صيغة ونحن له عابدون » (١) .

(١) البقرة : ١٢٨

المراجع

المؤلف	اسم الكتاب
عباس محمود العقاد	١ - الشيوعية والانسانية
د . مصطفى السباعي	٢ - اشتراكية الاسلام
د . يحيى الدرديري	٣ - اركان الاسلام الخمسة
علاء الدين الحصكفي	٤ - الدر المختار ج ٢
السيوطي	٥ - الاكليل
نتحى عثمان	٦ - آراء تقديمية
ابن عربي	٧ - احكام القرآن - القسم الاول
السيوطي	٨ - الانتان في علوم القرآن
أبي عبد الله البخاري	٩ - الجامع الصحيح ج ٢ و ٨
	١٠ - الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية
علي ابو الفتوح باشا	١١ - الرسالة
الإمام الشافعي	١٢ - السلام والجلاء
أنجي أنلاطون	١٣ - الاقتصاد السياسي
د . علي عبد الواحد وافي	١٤ - النسخ في الشريعة الاسلامية كما افهمه
عبد المتعال الجبري	١٥ - تفسير البغوي
البغوي	١٦ - تفسير الخازن
الخازن	١٧ - تفسير المنار
محمد عبده ورشيد رضا	١٨ - دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب
الشنقيطي	١٩ - صفوة الكلام في اصول الاحكام
مصطفى خفاجي	٢٠ - فقه الاسلام
د : حسن أحمد الخطيب	٢١ - محاسن التأويل ج ١٠
القاسمي	٢٢ - محمد رسول الله في مرآة الفكر الاجنبي
د : عبد الفتاح علي شحاتة	٢٣ - مشروع للسلام الدائم لديكارت
ترجمة أمين عثمان	٢٤ - لباب النقول في اسباب النزول
السيوطي	٢٥ - الاسلام في مواجهة التحديات المعاصرة
أبو الأعلى المودودي	